ميّ وسعد والجلاء !

ألقيت في مهرجان الجلاء السنوي بدمشق في ١٧ نيسان ١٩٥٥ .

•

لفتةً يا ميّ .. نيسانُ عبيرٌ ، وبشائرْ
وربيعٌ ، مثلَ عينيكِ ، أصيلُ السحرِ آسرْ
أنظري .. غمغمةُ النبعِ ، وحسناءُ ، وشاعرْ
وخطانا تنسجُ المرجَ .. نسيماً وأزاهرْ
حبنا أترعَ هذي الارضَ نبضاً ، ومشاعر
حبنا يا مي .. هل آمنتِ أن الحبَ قادرْ ؟!

•

حرةٌ أنتِ ، اسفحي حيثُ تشائينَ رؤاكِ !
وطني حلو كريّاكِ .. جميلٌ كصباكِ !
ربوةُ الشامِ لنا ، والنهرُ همسٌ وتشاكي ،
وظلالُ الغوطةِ الخضرِ يقبلنَ خطاكِ
حرةٌ أنتِ .. انثري حيثُ تشائينَ رؤاكِ
وطني حلو كعينيكِ .. وحيٌّ كصباكِ !

•

أنظري ، غابةُ دوحٍ تفرشُ الأرضَ ظلالا
وتدلي الثمرَ الاشهى .. يميناً ، وشمالا !
هي لي ، بلْ لكِ يا ميّ ، إذا العشاقُ آلا
في غدٍ عشاً ، وسهراتٍ ، وأحلاماً طوالا ،
كم تحصنا بها ، إذ ألهبَ البغيُ النضالا
وتحدى .. فأحالَ الشامَ ساحاً ، ونزالا !

•

هذه ألحاننا النشوى ، وافراحُ الجلاءِ !
أسكرتْ نيسانَ ، فاستلقى على جدولِ ماءِ
أتذكرتِ .. إذ السفاحُ يسقي بالدماءِ
هذه الأرضَ ، ويكسوها ضلوعَ الشهداءِ ؟
من بلاءٍ سارَ هذا الشعبُ جيلاً لبلاءِ !
فدعينا نغمسُ العودَ .. بأفراحِ الجلاءِ !

•

« جحد ماضيه كله ، ورفض اراءه كلها ، ونزل حتى عما كان خليقاً ان يحتفظ به من ايسر الكرامة واهون الكبرياء .. ظن نفسه حراً ، ولم يكن الا عبداً للمال ، وظن نفسه ابياً ، ولم يكن الا ذليلاً لسلطان .. »

« ان المتنبي قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه . وما اكثر ما يخدع الناس عن انفسهم . ولكن الغريب ان المتنبي لم يخدع نفسه وحدها ، وانما خدع معها كثيراً من الناس فظنوا به الحرية والكرامة واباء الضيم . »

واعلن الدكتور طه حسين او اذاع في كتابه « الوان » في فصل عنوانه « الادب العربي بين امسه وغده » :

« ان هناك تطوراً لأدبنا الحديث اعظم خطراً وابعد اثراً من كل ما قدمت وهو الذي سيوجه الادب في المستقبل الى غاياته التي لا يستطيع عنها تحولا او انصرافاً فيما اعتقد » .

وهنا يشير الى الادباء الاحرار الذين « يكبرون انفسهم ان يحميهم هذا العظيم او ذاك . »

ثم يتابع : « قد تقول انهم ينتجون للجمهور ، فهم مدينون للجمهور بحياتهم الادبية » . وكل « اديب في بيئة متحضرة انما يعيش للجمهور وبالجمهور ، كما ان الجمهور نفسه يعيش لكل انسان . » .

« فالظاهرة الخطيرة في ادبنا الحديث هي هذه الكرامة التي كسبها الادباء لانفسهم ولادبهم والتي مكنتهم من ان يكونوا احراراً فيما يأتون وفيما يدعون » .

« اما الوجه الثاني لهذا التطور فهو ان الحرية نفسها قد فتحت للادباء ابواباً لم تكن تفتح لهم حين كان الادب خاضعاً للسادة والعظماء . وقد اثرت ظروف التطور الانساني في توجيه هذه الحرية . فقد كان الادباء القدماء ، يؤثرون انفسهم ويؤثرون الفن ويؤثرون الشعب بما ينتجون ، وكذلك عكف الادباء على انفسهم فحللوها وعرضوها : وكذلك فرغ الادباء لفنهم فجودوه كما يريدون ويستطيعون ، وكما يريد الفن ، لا كما يريد هذا السيد او ذاك .. وكذلك عكف الادباء على الشعب ، فجعلوا يدرسونه ويتعمقون درسه ، ويعرضون نتائج هذا الدرس ، ويظهرون الشعب على نفسه فيما ينتجون له من الآثار . وهذا كله قد رفع الادب الى الصدق والدقة وجعله انسانياً لا فردياً ، ووضعه حيث وضعت الاداب الحية الكبرى نفسها بحكم التطور الذي دفعتها اليه ظروف الحياة الحديثة . »

و« هناك حقيقة واقعة . وهي التي اريد ان اختم بها هذا البحث الطويل وهي ان الحياة الانسانية على اختلاف بيئاتها تتجه الان اتجاهات شعبية لا فردية . ومن طبيعة هذه الاتجاهات الشعبية ان تستغرق كل شيء » . والادباء « سيلائمون في ادبنا العربي ، كما لاءم زملاؤهم في الاداب الاخرى ، بين امتياز ادبهم الرفيع وطموح الشعوب الى ان تستغرق كل شيء » .

اسوق هذا الكلام من غير تعليق ، لأني لا اقصد في هذا الفصل قصد النقد ، ولا اقصد قصد المناقشة .

فتلك وقائع اثارت في نفسي الواناً من الملاحظات والتفكير رأيت ان اذيعها على القراء لتثير في نفوسهم الملاحظة والتفكير .

موريس كامل

كان سعدٌ موجةً من فرحٍ صاف عميق
يملك الدنيا بعينين ، وخدٍّ كالشروق
ويحس الأرض تنهال عليه بالرحيق
ويرى العيدَ ، وقد أقبل في خطوٍ رشيق
يفرش الورد لميّ ، وله ، طولَ الطريق
خلق الحب .. لحرّ من أذى القيد طليق !

•

ورنت مي .. وهزت قبضة ريا ذراعا
ورمى الصمتُ على ثغر الحبيبين قناعا
وأطلت نجمة تستطلع السر المذاعا
وتهادى « بردى » في خاطر الليل شعاعا
ما دهى الحسناء؟ هل باغتها حلم ، فراعا؟
فبدا الصمت بجفنيها وميضاً ، والتماعا !

•

جمدت في فم سعد لفظةٌ كادت تبوحُ
ورآها .. مثلما شدت على الجمر الجروح
أي لغزٍ أضمرت ميّ فأعياه الوضوحُ ؟!
أي إيماضٍ من النار بخديها يلوحُ !
ما أحبّ الحسنَ تمشي فيه كالجذوة روح !
ما أحبّ الحسنَ يستهويه همّ ، وطموحُ !

•

وأدارت رأسها ، وانتفضتْ في الريح خصله
باغتتها نسمةٌ عجلى من النهر ، بقبله :
ربوةُ الشام لنا يا سعدُ ، والشهب المطله
ونسيمُ الليل كالخمرة يُروي كل غله
وضفافُ النهر ، والوردُ الذي يفرش ظله
للهوى ، لي ، لكَ ، للمحزون سلوى وتعله !

•

ربوة الشام لنا سعد .. وأعيادُ الجلاء
ورؤى نيسان سكران ، وآهُ الشعراء
والاغاني يتفجّرن كشلال الضياء !
فتنٌ رائعةُ السحر ، كوحي الانبياء
غير أني لستُ مَنْ تغرقُها حفنة ماء
أنا لن أهدأ .. مذ اشعلت شيئاً في دمائي !

•

أمس قد كنت بلبنان ، ومازلت نجيعا
يتحدى العبد (هولاكو) ، ومولاه الرفيعا
أنا في النيل نداء الارض قد لاقى السميعا
انا في المغرب أمٌ تُلقمُ الموتَ رضيعا
وفتاةٌ وهبتْ ثائرها قلباً جَزوعا
أقسمت تهواه حياً ، وستهواه صريعا !

•

أنا قبل الحب — هل تسمع ؟ — روحٌ عربيه
تتلقى كل فجرٍ من يد البغي منيّه !
حرة ؟ .. هيهات ، أرضي للحراب الاجنبيه
ربما كنتُ غداً في مهد اجدادي سبيه
ربما القاك — من يدري ؟ — على الدرب ضحيه
شاءها مستعمر نذل بطلق ، او شظيه !

•

حرة ، لا ، كذب الوهم ، ودعني وقيودي
نصطرع ، لابد من فجر على الارض جديد
حرة ؟ غفران ثارات الضحايا ، والحدود
ودم في القدس يستصرخ أكفان الجدود !
حرة ؟ لا كذب الوهم ، ودعني وقيودي
نصطرع .. لابد من فجر على ارضي جديد !

•

لا تشح وجهك ، لن ارقص في عيد الشآم
لا ، ولن اقنع بالقطرة من صوب الغمام !
وطني تعرفه يا سعد أنقاضُ حُطام
لملمتها خرقٌ صامتةٌ تحت الظلام
أمتي . حفنةُ أشباحٍ تلوى في الحيام
ينهش الداء بقايا الجلد فيها ، والعظام

•

دوحُ بستانك في الغوطة فذّ الحسن ، رائع
اكدوا أن به كوخاً وخلف الكوخ جائع
وطني يا سعدُ فلاحٌ وراء الطين قابع
وذراعٌ أسمرٌ تحت غبار النول ضائعْ
يصنعُ التاريخَ هؤلاء والمجدَ ، اسامعٌ ؟
ان يكن في المحن السوداء للتاريخ صانعْ

•

قم معي نبدأ جلاءَ البؤس في الكوخ الحقير
وقباب الطين لا تعرفها ومضة نور
قم معي نبعثْ من الأجداث أسمال العصور
حُرمت من جرعة الماء ، ومن دفء الحصير
واعتذاراً من (أبي رمانة)[1] الزاهي المنير !
والقصور البيض في جنبيه تومي للقصور

•

عد معي فالدرب درب البعث يا سعد طويل
ينتهي جيلٌ ، ويمضي في الكفاح المرجيل
لم يَرُعْنا أن من يصمد في الشوط قليلُ
مقودُ النصر بأيدينا .. وهيهات يحولْ !
شعبنا هذي الجباه السمر ، والعزم الاصيل
صخرةٌ يفنى عليها كل طاغ ويزولْ !

•

عد معي يا سعد نقسمْ بنجيع الشهداء
عطرت ثوراتنا الحمر به كل سماء !
أننا ماضون عبر الدمع ، او عبر الدماء
من بلاء تشمخ العلياء فيه ، لبلاء
فاذا ماجت بأرض «الضاد» رايات الجلاء
ونفضنا عن نعال الشرق ظل «الدخلاء»
وامحت من هذه الارض دموع البؤساء
ضمني يومئذٍ ، واسكر على رجع غنائي !

حلب — **سليمان العيسى**

---

١ شارع فخم من شوارع العاصمة .